مَكَانَةُ اللّغة العربيّة في عَصرِ العُثمانيين وما بَعدَ الجمهوريّة

د. حسين يازيجي

ثَمَّة حَقيقة غير قابلة للنقاش، وهي أَن اللّغةَ العربيّةَ قد حَظيَت باهتمام في زمن الغزنويين الذين هم سُلالة تركية أغوزية حكمت في أفغانستان خراسان وشمال الهند ما بين ٩٧٧-١١٥٠م ثم في البنجاب حتى ١١٨٦م قَبلَ العثمانيينَ، بيدَ أنَّ هذا الإهتمام زادَ كثيراً في زَمن العُثمانيين، ذلكَ أنَّ الأتراكَ بعدَ دخولهم الإسلامَ اعتَمدوا اللّغة العربيّةَ كَلُغة ثانية لهم وأوضحُ دليل على إيلائهم الأَهميةَ الكبيرة للغة العربية أنهم كانوا يعتمدونَ اللّغةَ العربيّةَ أكثر من اعتمادهم اللغةَ التُّركيَّة كلغة للتَّعليم في المدارس الدِّينيّة التي كانوا يجدونها في الأراضي التي فتحوها أو في المدارس الجديدة التي أشادوها في تلك الأراضي بعد الفتح وإضافة إلى ذلك فقد قيل إن السُلطانَ سَليماً الذى هو تاسع سلاطين الدولة العثمانية وخليفة المسلمين الرابع والسبعون، وأوّل من حمل لقب «أمير المؤمنين» من آل عثمان و حكم الدولة العثمانية من سنة ١٥١٢م حتى سنة ١٥٢٠م كان يفَكِّرُ في جعل اللّغة العربيّة اللغةَ الرَّسميَّة للدَّولة (انظر،تقويم للحياة الفكرية في البلاد العربية في العصر العثماني، تأليف: أ.د. ليلى الصباغ، ترجمة: تحسين عمر طه، مجلة دراسات العالم التركي ١٩٨٦، عدد ٤٤، إسطنبول ص ٤٧-٧١).

من المعلوم أن للمدارس العثمانية مكانة هامّة جدا في تاريخ التعليم الإسلامي لأنها كانت حجرا أساسيا في التعليم على المستوى المتوسط والعالي والمدرسة فهي التي كانت تربّي الأجيال وتزوّد البلاد بالثقافة التي تحتاجها.

.لقد افتَتَح السلطان أورخان غازي ثاني سلاطين الدولة العثمانية الذي حكم البلاد من عام ١٣٢٦ حتى عام ١٣٦١ م في إزنيك سَنة ١٣٣٠ أولَ مَدرسة دينيَّة في الدولة العثمانية وكانت هذه المدرسة بَمثابة أوّل جامعة للعثمانيين ومنذ ذلك الحين وحتى انهيَار الإمبراطوريّة العُثمانيّة أُعطيت أهميةٌ بَالغَةٌ للّغَة العَربيَّة ولتَعليمها، كما أن الكثيرَ من المُدرِّسينَ الَّذين يُعادلونَ في علمهم اليومَ رتبة «الأستاذ الدكتور» والذين تخرَّجوا في هذه المدارس وَتسلَّموا وظَائفَ في مؤسسات أُخرى كَتبُوا بَعضَ كُتبهم باللّغة العربيّة، وقد كان الأُسلوبُ الذي استَخدَمُوه في مؤلفاتهم وَاضحاً وسَلسَاً للغايَة.

يمكن القول بأن ليس هناك دولة من الدول أعطت أهمية بالغة للعلماء واعترفت بفضلهم مثل الدولة العثمانية فقد كان هؤلاء العلماء بما فيهم مدرسوا اللغة العربية يتمتعون بالإمتيازات لا يمكننا أن نراها اليوم عند أي دولة مثل الإعفاء من بعض الضرائب و أيضا من بعض العقوبات

لا شك فى أن أهم التطورات في النظام التعليمي بالمدارس العثمانية هي التي حدثت في عهد السلطان سليمان القانوني فعهده كان يمثل الذروة في نظام المدارس .

إن اتخاذ المدرسة صفةَ جامعة كان من الطبيعي أن يُغيِّرَ نظرة الإداريين، فقد كانت هذه المؤسساتُ تشملُ المراحلَ المتوسّطة والعالية. لقد بلغ التَّعليمُ أَوْجَهُ في هذه المدارس في العصر الذهبيّ للدولة العثمانيّة، ونالت اللغة العربية أيضاً نَصيبَها من الرِّفعة، ففي مدرسة «الصحن الثمانية» في إسطنبول التي كانت مؤسسة التَّعليم العالي التُّركيَّة الأولى، وثمرةً للعصر الذهبي العثماني، كانت تُدرَّسُ فيها كتبُ الكلام والفقه والتفسير المكتوبة باللغة العربية، وتُشرحُ بطبيعة الحال باللغة التُّركيَّة. وقد أُفتتحت هذه المدرسة في زمن السلطان محمد الفاتح فاتح اسطنبول.

وبعد افتتاح الصحن الثمانية ومدارس التتمة في اسطنبول حدثت تعديلات جديدة و كثيرة في النظام التعليمي في المدارس داخل الحدود العثمانية.

كان المُثقَّفون والإداريون العُثمانيون على دراية جيدة جداً باللّغة العربيّة. وكانت هناك محاولات كما قلنا سابقا من حين لآخر لإحداث تَعديلات على برامج المدارس الدِّينيَّة وموادِّها بما في ذلك اللّغة العربيّة.

ويُمكننا القول وبأريحية إن هناك تَطورات هامة حَدثت في مَجال تَعليم اللّغة العربيّة في مَرحلة ما قبلَ الجمهوريّة، بَيد أنَّه بشكل عامّ لم يتم إحرازُ تقدم مُلاحظ في هذه التّعديلات الجديدة حتّى فَترةَ المشروطيَّة الثّانية التي بدأت بإعادة العمل بالدستور القديم في ٢٤ من تموز عام ١٩٠٨ و استمرت عشر سنوات. شهدت البلاد في هذه الفترة الديموقراطية البرلمانية، الإنتخابات، إنشاء الأحزاب السياسية و الإنقلاب العسكري.

لا بد أن نشير هنا الى أن بعض الدراسات أكدت أن انتهاج الأسلوب السلطوي في التعليم القائم على التخويف وتهميش دور الطلاب يسبب نمو مشاعر العداء تجاه المعلم ويجعل العلاقات بين الطلبة علاقات تنافسية عدوانية في حين أن انتهاج الأسلوب الديمقراطي القائم على المشاركة والتعاون يساعد على تفتح شخصية

الطالب ويدفعه للعمل والبحث والتعاون مع الآخرين في أجواء تسودها روح المحبة والمناقشة والتحليل ممّا يحقّق أهداف التعليم الحديث في تنمية شخصية الطالب. قد يكون هذا انتهاج الأسلوب السلطوي المشار اليه أعلاه من أحد أسباب الفشل في تعليم اللغة العربية في فترة ما قبل الجمهورية خاصّة.

وقبل مرحلة المشروطية الثانية تم إطلاق حركة تطبيق الأصول الجديدة في زمن التّنظيمات التي هي فترة التجديد والتحديث و بدأت بإعلان مرسوم التنظيمات، وأظهرت فعاليتها في تلك الفترة في مجال التَّعليم لفترة قصيرة، واستمرت في عصر المشروطية، حيث تم التَّحول من نظام التَّعليم التقليديّ إلى نظام حديث يتناسبُ وظروفَ تلك الفترّة، فإنّ التغير الأهمّ الذي لفت الإنتباه في تلك الفترة هو تغير موادّ وطرق التَّدريس.

وبعد المشروطيّة الثّانية تم إحداثُ وتَطبيق مَناهج وأساليب لتعليم اللّغة العربيّة تختلفُ عن سابقتها من ناحيتيّ المضمون والزمن.

كما هو معلوم أن في تعليم اللغة العربية صعوبات تحدثُ في كل مكانٍ في مجالي الكلام والتعبير الكتابي. وقد كان إدراك هذه الصعوبات يؤدي المعنيين بالأمر الى ايجاد حلٍ لها، حيث تداركت برامجُ التَّعليم في المدارس هذه المشكلة. ويمكننا أن نقدم مثالاً على ذلك عبارةَ وردت عام ١٩١١م في برنامج مدرسة دار الشفقة (١٨٧٣) تقول:

« ستُطبّق أصول جديدة في اللغة العربية، وسنأخذ بعين الإعتبار الكلام والتعبير» (حسن صويوبيك، ص ٤٧٨)

يُمكن القول إن الفترة التي سبقت تأسيسَ الجمهورية التُّركيَّة قد شهدت خطوات في غاية الأهميَّة في مجال تعليم اللغة العربية، على الرَّغم من حدوث بعض الإخفاقات بين الفَينَة والأخرى، فقد كانت مادة اللغة العربية من المواد المساندة في برامج المدارس الشَّرعيَّة. كما نالت اللغة العربية نصيبها من الإصلاحات التي أجريت في مجال التربية والتَّعليم، وخاصّة في مرحلة المشروطية الثانية كما أشير سابقاً، فقد طرحت أفكار مُختلفة حول القدرة على تعليم هذه اللغة بأسرع وأنجع الطرق. وفي هذا المجال يجدرُ بنا أن نُشيرَ إلى المقولة التّالية:» لقد حان وقتُ إصلاح تعليم اللغة العربية، يجب علينا توفيرُ نظام تعليمي يحققُ تعليم اللغة العربية بشكل ممتازة في فترة أقصاها أربعُ سنوات». (حسن صويوبيك، ص ٤٧٨)

بعد تأسيس الجمهوريّة التُّركيَّة حُفِظَت مكانة اللّغة العربيّة، لكن ظَهر فرقٌ كبيرٌ جداً بين التَّعليم في العهد العُثماني والتَّعليم في ذلك العهد الجديد، وسبب ذلك أن العُثمانيين أحسوا بأهمية بالغة بتَبَنِّي اللّغة العربيَّة بسبب كونها لُغةَ الدِّين، ولكن هذا الشُّعور ومع الأسف اختَلفَ تماماً في عهدِ الجمهوريّة.

أمّا في مَرحلة ما بعد الجمهوريّة فقد استمرَّ تَعليمُ اللّغة العربيّة في المؤسسات الدِّينيَّة بشكل كبير، وقد كانت تُدَرَّس كَمادَّة في المرحلة المُتوسِّطة في ثانويات الأئمَّة والخُطباء، وبالرغم من إجراء بَعض التغييرات لم يَحدث تَغير مُلاحظ في مستوى النَّجاح، ولم تُثمر المناهجُ في ذلك الوقت نَتَائَجَ جيدة تبهج المعنيين بالأمر. وعلى الرَّغم من الإنتقال إلى تطبيق مختلف في المنهج والمضمون وخاصةً بعد العامّ الدراسيّ ١٩٨٤/١٩٨٥ لم يتم إحراز نَجاح واضح أيضاً. ولعل السببَ في ذلك يَكمنُ في تصنيف مادَّة اللغة العربيّة كدرس مهنيّ وقيام مُدرِّسيّ الدّروس المهنيَّة بتدريسها، فكان من الطبيعي أن يؤثر هذا الوضع بشكل سلبي على تدريسها. (انظر، حسن

صويوبك: تعليم اللّغة العربيّة في تركيا من المشروطية الثانية إلى يومنا هذا، إسبارطا، ٢٠٠٤).

وكذلك مستوى التّعليم في الجامعات التي أُسّست بعد الجمهوريّة لم يكن بأفضل ممّا كان عليه في فترة ما قبل الجمهوريّة، لأن اتباع المناهج التقليدية في التربية القائمة على الحفظ والتلقين يؤدي بكل تأكيد إلى الفشل.

لقد تمَّ العملُ على تَعويضِ النَّقص وإصلاح الخلل من أجل تحسين تَعليم اللّغة العربيّة بشتَّى الطُّرُق، مثل تَقرير دراسة السَّنة التَّحضيريّة، وزيادة ساعات مادَّة اللّغة العربيّة، وتَدريس بَعض الكُتُب المُصمَّمة بمنهج حديث. ولكن في المقابل لم يَظهر تَغيُّرٌ مَلموسٌ، لأن مَفهوم المُدرِّسين الجُدد لمَنهج التَّدريس لم يختلف عن مفهوم سابقيهم من المُدرِّسين.

ولكن نَذكر أنَّ التَّطور الأهم الذي شَهدتهُ هذه المرحلة كان في كليَّة الشَّريعة بجامعة التَّاسع من أيلول في السَّنة الدِّراسيَّة ٢٠٠١/٢٠٠٢، وذلك بإجرائها تحديثات هَامَّة في الصُّفوف والأدوات والمعدات والمناهج، فقد بَذلت الجامعة جُهداً لإنجاح مَشروعِها، وإن كانت ثمارُهُ قليلةً.

إنَّ أكبر عائق يقفُ أمامنا هنا هو المعداتُ وفريق التَّدريس وطريقته هناك مشكلات عامة نعيشها دائما في تعليم أي لغة فلذالك لا بد من اختيار المعلم والمنهج والطريقة لإيصال وتجدر الإشارة الى أن كتابَ«النحو الواضح» لعلي جارم و مصطفى أمين هو الأكثر تدريساً ككتاب للقواعد. وبعد ذلك أصبحت بعض كليات الشريعة وأقسام اللغة العربية في كليات الآداب تُدرِّس كُتباً مثل «العربية المُيسرة» و«الكتاب الأساسيّ» و«سلسلة اللسان». وهذا يُشير إلى نجاح في مرحلة الجمهورية خاصّة اعتبارا من عام ألفين ولو كان هذه النجاح محدوداً ودون المأمول.

إن مشكلة المحادثة باللغة العربية التي عاشها الطلاب في مرحلة ما قبل الجمهورية استمرّت بعدها أيضاً. فقد اقتصرت دروس المحادثة ولفترة طويلة على قراءة الكُتب دون تطبيق عمليٍّ لهذه المحادثة. وبعد التسعينيات ومع تبني رؤية وأفكار جديدة أدى رَفدُ الكادر التَّدرسيّ في الجامعات بالكفاءات الشَّابة إلى إحداث نَقلة نوعية في هذا المجال.

ومن الفترات المهمة في مجال الإهتمام باللغة العربية فترة تورغوت أوزال المُمتدّة ما بين عامي ١٩٨٣-١٩٩٣م. حيث شغل منصب رئيس الوزراء في الحكومتين التُّركيَّة الخامسة والأربعين والسادسة والأربعين، واختير بعد ذلك رئيسا للجمهورية، ثم مات أثناء فترة رئاسته، ففي تلك الفترة حصل انتعاشٌ ملحوظٌ في مجاليّ السياحة والإقتصاد نتيجة للعلاقات القوية والصادقة مع الدول العربية الشقيقة. وقد أدى كل ذلك إلى زيادة الإهتمام باللغة العربية عمّا كان عليه الأمر في الفترات السابقة، كما زاد من فرص العمل، الأمر الذي انعكس بشكل ايجابيّ على تعليم اللغة العربية وتعلّمِها.

في فترة تورغوت أوزال أيضاً كان أرشيف رئاسة الوزراء التُّركيَّة الذي يحوي ملايينَ الوثائق من أهم المؤسسات محلاً للإهتمام، والأرشيف يحوي الوثائق العثمانية التي تتطلب قراءتُها معرفةَ اللغات العثمانية والعربية والفارسية جميعاً.

وبعد وفاة تورغوت أوزال وحتى عام ٢٠٠٢ تعاقبت حكومات مختلفة، وفي فترة من الفترات أصبحَ تعليم العربية موضعَ الملاحقة والمسائلة، فالتَّطورات السياسية والإجتماعية في البلاد هي صاحبةُ التأثيرِ الأكبرِ سلباً وإيجاباً في جميع الفعاليات.

ولكن يجب أن نُقيِّمَ السنوات الإثنتي عشرة الأخيرة بشكلٍ جيدٍ جداً. وبعبارة أوضح لقد أصبحت هذه السنوات الأخيرة وبفضل الإهتمام الكبير بالكُتب المتعلقة باللغة العربية وتعليم اللغة العربية بطريقة حديثة وتوظيف أساتذة عرب في بعض الجامعات في هذا المجال، أصبحت الفترة الأكثر إنتاجية في فترة ما بعد الجمهوريّة. والأهم من ذلك ارتفاع جُودة التَّعليم، بالإضافة إلى ازدياد نجاح الخريجين في الكتابة والمحادثة والفهم. وكان من الطبيعي بعد هذا النجاح أن تزداد نسبة فرص العمل بشكلٍ كبيرٍ قياساً بالماضي، فالطلاب الذين كانوا في الماضي لايجدون عملا إلا في بعض المكتبات وأماكن محدودة أصبح بإمكانهم اليوم أن يجدوا عملاً في مجالات مختلفة، كقنوات التلفاز والشركات والمستشفيات ومكاتب السياحة والترجمة والمدارس والندوات

والمؤتمرات. ولقد شجَّعَ وجود الكادرِ التَّعليميّ المُؤهَل وزيادة فرص العملِ الطُّلابَ على دِراسةِ اللغة العربيَّة، وزادَ من جودة التَّعليم بشكلٍ ملموس وملاحظ.

المراجع :

-مصطفى بيلغه: مدارس العثمانيين الأولى، إسطنبول، ١٩٨٤/

-رمضان شاشان: تعليم اللّغة العربيّة وأدابها في العهد العثماني، منشورات وقف دراسات العلاقات العربية، إسطنيول ١٩٨٦ ص . ٢٦٨-٢٧٦/

-يوسف ضياء بيلدرجي: تعليم العربية في تركية من عصر التنظيمات حتى الجمهورية، (رسالة ماجستير غير مطبوعة) جامعة أنقرة- معهد تاريخ الإنقلاب التركي، أنقرة ١٩٨٧/

-صالح ملك: الطرق الحديثة والتقليدية في تعلم وتعليم اللغة العربية، جامعة غازي- معهد العلوم الإجتماعية، أنقرة ١٩٨٧ (رسالة ماجستير غير مطبوعة) /

-سعاد جبجي: كفاءة مدرسيّ الدروس المهنية لثانوية الأئمة والخطباء، جامعة أنقرة- معهد العلوم الإجتماعية، أنقرة، ١٩٩٤ (رسالة دكتوراه غير مطبوعة) /

-عثمان أويغون: تعليم العربية في ثانوية الأئمة والخطباء، جامعة أنقرة- معهد العلوم الإجتماعية، أنقرة، ١٩٩٤ (رسالة ماجستير غير مطبوعة)/

-سليم قونال: البرامج المسلكيّة لمعلميّ مواد الأئمة والخطباء المهنية، (رسالة ماجستير غير مطبوعة)، جامعة التَّاسع عشر من أيَّار- معهد العلوم الإجتماعية، صامصون ١٩٩٥/

-كريم اجك: تعليم العربيّة في المدارس الثانوية للقوى البريّة و تقييمها حسب المنهج التواصلي، (رسالة ماجستير غير مطبوعة)، جامعة مرمرة/

-أحمد التون: الأساليب المعاصرة في تعليم اللّغة العربيّة، جامعة مرمرة- معهد العلوم الإجتماعيّة، (رسالة ماجستير غير مطبوعة)، إسطنبول ١٩٩٧/

-محمود كراجه: تعليم اللغة العربية في مؤسسات التَّعليم العالي في تركيا، (رسالة دكتوراه غير مطبوعة)، جامعة أولوداغ- معهد العلوم الإجتماعية، بورصا ٢٠٠٠/

-كريم اجك: تعليم العربيّة من عصر التنظيمات حتى الجمهوريّة (المصادر والمناهج) (رسالة دكتوراه غير منشورة)، جامعة مرمرة، إسطنبول ٢٠٠٢/

-طورسون هازر: تعليم العربية في المدارس العثمانيّة والكتب المَدرسيَّة، GÜÇİFD، جروم ٢٠٠٢، المجلد الاول، العدد ١ ص ٢٧٣-٢٩٣. /

-حسن صويوبك: تعليم اللّغة العربيّة في تركية من المشروطية الثانية إلى يومنا، إسبارطا ٢٠٠٤/

http://www.odabasham.net/show.php?sid=١٤٩٧٩/٢٠١٥,٠١,٠٣

http://www.almotmaiz.net/vb/٢٨٦٠٢/٢٠١٥,٠١,٠٣

http://www.crdp.org/ar/details-edumagazi